الأهالى

الأقباط والمأزق الوطنى

د. رءوف عباس

الأربعاء، 11 مايو 1994

أثارت فكرة عقد مؤتمر الأقليات فى الوطن العربى موجة من الإستنكار عند المثقفين المصريين عندما أعلن أن المؤتمر سوف يخصص حلقة لدراسة " هموم الأقباط " . وسارعت الأقلام – على اختلاف توجهات وديانة أصحابها – تشجب هذا الإتجاه الذى يفتح الباب أمام القوى الأجنبية التى تتربص بمصر ، تريد أن تفكك أوصالها ، وتعصف باستقرارها ، خدمة لسياسات إقليمية ودولية ، ترى ضرورة تحجيم دور مصر ، وإعاقة حركتها وإنهاك قواها .

وقد تابعت هذا الحوار الذى دار فى الأسبوع الماضى مع غيرى من المصريين الذين تشغلهم هموم الوطن ، وعجبت لأسلوب معالجة الفكرة التى تنفى صفة " الأقلية " عن الأقباط عن طريق تأكيد بديهية لاجدال فيها ، هى أن الأقباط نسيج اجتماعى مصرى أصيل ، واستعادة ماضى الوحدة الوطنية لتأكيد أن الأقباط كانوا يتحركون دائما فى إطار الجماعة الوطنية ، وأنهم لم يعملوا يوما على الإنفصال عنها ، وبذلك بدا الحوار وكأنه يستهدف إقامة البرهان على انتماء الأقباط إلى مصر ، وأصالتهم كمكون أساسى للجماعة الوطنية ، وهو أمر يبعث على الأسى والحزن ، لأننا نناقش بديهيات تشكل جوهر تاريخنا الممتد على آلاف السنين ، وكأننا نريد تأكيدها عند ختام القرن العشرين !!

ورغم عبث هذا الطرح ، إلا أنه – فى رأيى – لايعفينا من مواجهة الأمر بصراحة وواقعية ، ونطرح جانبا هذا التناول الرومانسى للقضية ، ونعترف بأن هناك مأزقا وطنيا يرقى إلى مستوى الأزمة التى تهدد مستقبل هذا البلد ، بدأ مع مطلع السبعينيات عندما اضطربت بوصلة العمل الوطنى ، وغاب المشروع القومى ، وعندما تم تبنى سياسات تجافى سياق التاريخ المصرى برمته ، بذرت بذور التعصب الذى أنبت هذه الأزمة فعندما يغيب الهدف القومى الذى يجمع المصريين جميعا حوله سعيا لتحقيقه ، ويعلى مصلحة الوطن ، ويستشرف آفاق المستقبل ، تصبح الساحة خالية أمام خفافيش التعصب ودعاة شق الصف الوطنى .

نعم .. الأقباط هم سداة النسيج المصرى الاجتماعى والمسلمون لحمته (وغالبيتهم ينحدر من صلب أجداد أقباط)، وقد شارك المصريون أقباطا ومسلمين معا فى إبداع حضارة متميزة وثقافة إسلامية ذات طابع خاص يبرز فيها الموروث القبطى ، تلك حقيقة تاريخية لاجدال حولها .

نعم .. كان الأقباط دائما يحرصون على الحفاظ على وشائج القربى والتراث المشترك ، فلم يقبلوا أن يعاملوا معاملة الأقلية التى تعيش على هامش المجتمع ، وظلوا طوال الحكم الإسلامى يناضلون ضد مظاهر التمييز والتفرقة ، بل كان الأزهر يتدخل (فى العصر العثمانى) لرفع المظالم عنهم . ومع بداية العصر الحديث ، وفى منتصف القرن الماضى تحديدا ، رفض البطريرك العظيم الأنبا كيرلس الرابع أن يقبل عرض قيصر روسيا وضع الأقباط تحت حمايته ، كما رفض الأقباط التعاون مع الاحتلال البريطانى فوصفهم كرومر بأبشع الصفات ، ولكنه شهد بأن " الفرق الوحيد بين المسلم والمسيحى فى مصر هو أن الأول مصرى يتعبد فى مسجد والآخر مصرى يتعبد فى كنيسة " .وكانت صفوة الأقباط فى مقدمة النضال الوطنى من ثورة عرابى حتى ثورة يوليو مرورا بثورة 1919 ، ورفض الأقباط رفضا تاما أن ينص فى دستور 1923 على تمثيل الأقباط بنسبة معينة فى مجلس البرلمان مؤكدين حرصهم على المشاركة فى العمل السياسى على أساس الإنتماء الوطنى وليس الدينى .

هذه كلها بديهيات ترصع تاريخنا الوطنى ولاتحتاج إلى تأكيد .

ولكن ذلك كله لايجب أن يلهينا عن مواجهة المأزق الراهن للوحدة الوطنية ، فهناك تجاوزات كثيرة وخطيرة حدثت فى العقدين الآخرين يجب علينا مناقشتها بصراحة وألا نتعامل معها بمنطق ستر العورات لأنها ليست عورات فحسب ، بل هى ألغام تهدد نسيج هذا الشعب ومستقبل هذا الوطن ، بلغت ذروتها فى حوادث الإعتداء على الأقباط فى الصعيد ، وحوادث الإعتداء على الكنائس ، وربما رد البعض بأنها حوادث فردية أو ثارية ، ولكنها أصبحت ظاهرة يجب الوقوف أمامها ، لأنها تخفى تحتها نار التعصب الذى بلغ ذروته فى ممارسات الجهاز البيروقراطى الذى لايكاد يخفى سعيه لاختزال الأقباط من بعض المواقع الهامة فى مؤسسات الدولة رغم أنف الدستور والقانون والسياسات المعلنة للحكومة ، كما تخفى تحتها حصاد سياسة إعلامية خاطئة سمحت لبعض الوعاظ أن يتناولوا فى الإذاعة والتليفزيون عقائد المسيحيين بالنقد و الإستهزاء ، فضلا عن ترك منابر المساجد لعناصر مريبة من المتطرفين يصبون اللعنات على الأقباط ويفتون

بتحريم التعامل معهم . ثم هناك ماهو أخطر وأكثر تهديدا للوحدة الوطنية ، وهو سيطرة بعض العناصر المتطرفة التى أفرختها الجماعات الإسلامية على الكثير من المدارس – وخاصة فى الصعيد – وتربية جيل كامل على التعصب والكراهية . ولابد أن يؤدى ذلك كله إلى تغذية الإتجاهات التعصبية عند بعض الأقباط كرد فعل لهذه الممارسات المشبوهة التى يتعرضون لها ، وعندئذ يصبح مستقبل هذا الوطن فى خطر داهم ، ما لم نتدارك الأمر قبل فوات الأوان .

إن طوق النجاة الوحيد الذى يستطيع انتشال مصر من هذا الخطر هو التعامل مع أزمة الوحدة الوطنية بغرض التوصل إلى حل جذرى لها .

علينا أن نراجع ماحدث فى العقدين الأخرين فى إطار الحوار الوطنى الذى سيدور بين القوى السياسية فى مصر ، وأن نضع أزمة الوحدة الوطنية فى مقدمة جدول أعمال الحوار الوطنى ، ولابد أن يكون هدف هذا الحوار وضع مشروع للعمل الوطنى يضع مصر على أعتاب القرن الواحد والعشرين راسخة القدم ، تتم ترجمته إلى سياسات تلتزم بها " جبهة وطنية " تعمل على تحقيقها حفاظا على مصر ، وتأكيدا لدورها الحضارى .. مصر الإيمان والسماحة .. مصر كل المصريين.